

أضرار التشجيع

للامتاذ سعيد الأفغانى



إن من عادى إذا حل للصيف ونفضت عنى عناء التدريس وذيوله من امتحانات ومراقبات أن أقيء إلى قاعة المجمع للملى العربى ، فأمرح الطرف بما يرد إليها من الكتب والمجلات القريبة . وكان أن وقع فى يدي عدد من مجلة « المصيبة ^(١) » للصادرة فى المهجر ، فطفقت أطلع فيها ، فوفقت عند هذا العنوان « ذلك الأذى للقيم . بحث أدبى لادبنى » وإذا بالسكاتب يسئ فهم النصوص وضرب الأئمة الذين أجمعوا على أمية الرسول صلى الله عليه وسلم منذ صدر الإسلام حتى يوم الناس هذا ، ويمجب من غفلتهم ، ثم بتلطف بهم ويستدر لهم بأن الخطأ أمام من حيث إن النبي كان أمياً ثم زالت أميته !

يتساءل حضرة : هل زالت عنه الأمية كما زال عنه اليتيم بعد أن تقدمت به السن ؟ هل تعلم للقراءة ؟ (وهو يقضى طبعاً للقراءة فى الصحف التى لا يعرفها إلا من تعلمها مع الكتابة تملأها) . ثم قال : « نجيب بكل جرأة (هكذا والله بالحرف) إنه تعلمها وبز الأولين والآخرين ! » انتهى وما شاء الله كان ويأبى بعد ذلك إلا أن يسرد ما يراه حججاً من مثل : « أنا أفصح من نطق بالضاد » ، « أنا مدينة العلم ... » ، « اطلبوا العلم ... » ، « اقرأ باسم ربك الذى خلق »

لست أريد الرد على هذا الكلام ولا أنا بسدد شرح أمية الرسول فن للمبث المنجل أن أشغل للقراءة بما هو معلوم من التاريخ بالضرورة ، وإن مما يفهمه للصغير قبل الكبير أن القراءة معناها مطلق للتلاوة ، و (اقرأ) الواردة فى الآية معناها (اتل) عن ظهر قلب لا أن يسرد ما فى صحيفة أو كتاب . وإن حض الرسول على طلب العلم ، وكونه أعلم الناس لا يتناقض أميته ، وكل ما فى الأمر أن هذا اللغوى جهل للفرق المقرر بين (الأمية) و (اللامية) فنوم تناقضاً بين النصوص ، وأن هذا التناقض عمى عنه الأولون والآخرين حتى طلع حضرة ببصيرته النافذة ونظره الثاقب فأزال لبسه وحل تناقضه بقوله : كان أمياً ثم تعلم

(١) العدد (٢٢١) السنة السادسة ص ٩٢

وزالت أميته . دع عنك ما يعرفه كل مطلع على سيرة النبي من أخذ كتاب الوصى ومن استماله الرجال ليكتبوا عنه إلى الملوك ومن الحادث المشهور فى الحديثية حين سأل علياً عن مكان كلنى (رسول الله) من الصحيفة ليحجوها بيده الشريفه إذ أمر رسول المشركين على محوها وامتنع على ... إلى آخر القرائن التى لو لم يكن غيرها لما ساء لأحد عنده شيء من الفهم أن يذهب إلى نقي أميته ، فكيف ونصوص القرآن نفسها مصرحة بأميته فى آيات مكية ومدنية ، ولو لم يكن إلا هذا التواتر الصارخ لكان لعاقل أن يتهم عقله إذا تطرق إليه فى هذا الأمر شك مهما شؤل

أم كان من الحتم إذا قرر كاتب أن يحثه غير دبنى أن يركب رأسه فيه فينتقض البرم ويرم النقوض ، ضارباً بالعلم والتاريخ واللغة والمنطق والمقل عرض الحائط : يأخذ ما شاء ويدع ما شاء ويستنبط ما شاء كيف شاء بلا سند من برهان ولا رابط من فهم ولا ضابط من منطق

أنا لا أشك فى أن إنساح مجلة (المصيبة) صدرها مثل هذه الآراء الفظيرة ضرب من التشجيع ، وأنا باسم هذا التشجيع نُقذى عيون القراء بما يزهدم فى سمين الأدب تحامياً لنته وقد آت المفكرين أن يوازنوا بين مساوى التشجيع وما يذكر من حسناته ، حتى إذا رأوا الشر فيه أربى على الخير بنهوه غير مأسوف عليه

على أن أول الأضرار حائق بالدين نشجعهم : لأن أحدم حين يرى سخفه مذنباً باسمه فى صحيفة سيارة ، يداخله من الصلف والنورور ما لا يقومه مهذب بهنديبه ولا ناصح بنصحه ، ثم يترفع بعد هذا عن كل درس ومطالمة ، ذاهباً إلى أنه شب عن الطوق وأن بوسمه أن يأتي بخير مما فى الكتب ، فقد صار كاتباً محريراً وأديباً كبيراً ، وهذا ما يموق كثيراً من ناشئنا عن التعلم والتأديب للصحيحين ، وهو هو ما يشكو نفسيه فيهم كثير من البقلاء لست أنكر أن التشجيع قد يكشف عن بعض المواهب ويسلك بها السبل المجدية التى تؤتى فيها أكلها ، لكنه إلى ذلك يدفع إلى الحياة بخلق كثير من أنصاف العوام الذين انتفضوا غروراً واعتداداً وكانت أنوفهم فى السماء وهمهم فى الحضيض وقلوبهم هواء

ولأن نصد بتثيبتنا اثنين أو ثلاثة نأمل فيهم النجاح خير لنا

قبل سفره ، فيقفها على أن مراده الحصول على شهادة (الدكتوراه) فتتفق معه على مئات من الفرنكات تناسب هي وعدد للصفحات المطلوبة ، فتجمعه بأحد عملائها من الأساتذة الذين يرتقون من التزوير ، فيكتب له الأطروحة ويعلمه إياها تلمياً ، ويقومان معاً بتجربة المناقشة ، ثم يتقدم بها الطالب إلى الجامعة فيتموز بالشهادة وسه درجة (مشرف جداً très honorable) ويعود إلى بلاده فيهد إليه بمنصب على أو إداري يشرف منه على كثير من التملين ليس فيهم إلا من هو أعلم منه ومن أستاذه وأشرف

وقد بلغت الرقابة ببعض الجامعات أن تعطى الدكتوراه لمن قدم إليها أطروحته بلغة يجملها هو كل الجهل . فإذا أنت عجبت لهذه الجامعة كيف تترخص هذا الترخص ، وهي في أرق البلاد التمدنة ، أجابك المناخون عنها : إن هذا شأنها مع الترياء فقط ، وهو من قبيل التشجيع لا غير ، وليس على الجامعة من ضير ، لأن هذا الجاهل لن يضر وطن الجامعة ، وإنما للضرر منه على وطن آخر قد تكون سياسة الدولة التي تنتسب إليها الجامعة تعتمد هذا الإضرار تممداً . والأمر بمد هذا على شاكلة كل البضائع المشوشة التي تصدر هناك ، ويكتب عليها : « بضاعة للتصدير إلى الخارج »

ولست أدري ، هل في هذا الذي ذكرنا ما يبرر للنش والتزوير؟ وهل يتيح الدم تسمية الجاهلين علماء لوجه التشجيع فقط ؟ ولارأى الكثيرون هذه السبيل المبعدة لتليل للشهادات تهافتوا عليها وهجروا الطرق المشروعة من التلم الصحيح والدأب التواصل والعمل الجاهد ؟ وصار الذي يطلب الشهادة من طريقها الحلال مثلاً شروداً بين أحبابه في النفلة والنباه

ألا أخبرك ، يا سيدي القاري ، بأشد من ذلك كله وأنكي ؟ أتريد أن تعرف كيف آل الأمر بهذا التشجيع ؟ فاستمع إذن لما أقصه عليك :

لقيت منذ سنوات خمس شاب من حملة (الليسانس) هبط دمشق فجال جولة في أروقة الحكومة فيها ، وتكفل دهاؤه وشطارته ووسائطه أن يسهوا إليه بتدريس اللغة العربية في إحدى مدارسها . فبعد أن عرفني بنفسه بطف متناه واحترام قلبي ، خدّرتني بمجاملته الساحرة ، ثم قال :

إن أولى أمانيه في مجيئه إلى دمشق أن يجد السبيل لإيقاد مخطوط عربي نفيس من الضياع ، وإيه لقي كثيراً من علماء

وأبقى من أن نفتح للباب على مصراعيه فنشجع كل جاهل ودعي وغبي ، ونعلاً صحفنا ومجلاتنا جهلاً وسخفاً ونعيش في جو مشبع غثاءً وابتدالاً

وبعد فاذا على الرء أستاذاً كان أم أديباً أم صاحب صحيفة ، إذا قال للشادي : يا بني تحتاج إلى أن تتعلم كثيراً وتنب طويلاً قبل أن تمدتك نفسك بدفع ما تحظ إلى المطابع ؟

وإذا كان في كل حكومة إدارة خاصة لمراقبة المطبوعات من الناحية السياسية ، فلم لا يكون في كل إدارة جريدة ومجلة وفي كل مطبعة مراقبة فنية دقيقة ترفض كل رخيص مبتذل من المقالات ؟ إن من الواجب على المطابع أن تكف عن طبع كل كتاب ليس فيه سد ثغرة في المكتبة العربية أو إضافة خير أو إحياء تراث قيم ... وحينئذ يستريح الناس من هذا الهستير الذي تدفمه المطابع إلى الأسواق حتى سحمت النفوس للكتب والمجلات لما في أكثرها من غثاء وهزال

والحاجة إلى هذه الرقابة أمس لأن فيها وقاية للملكات من الابتذال والزكافة والفساد ، وذلك أجدي على الثقافة من كثرة الماهد والكليات ، إذ أن الصحف والمجلات والكتب مدارس ميسرة لكل قاري مهما ضؤل حظه من المعرفة . ومن أول الواجبات على هذه المدارس العامة أن تكون رافعة لمستوى قارئها لا خافضة له

في الأقطار العربية ظاهرة ثانية للتشجيع المجرم لا تقل عن هذه فتكا ونكابة ، وليس بناصح من عرف موطن الداء فلم يدل عليه بمجاملة أو إشفاقاً . عنيينا بهذه الظاهرة داء الشهادات التي يحصل عليها حاملها بأرخص ثمن وأيسر سبيل

ومع أن أعرف أن الجامعات ليست سواء في التساهل (أو النش إذا شئت الصراحة) أعرف كذلك أن بعضها قد تدنى - وخاصة مع الترياء - إلى درجة لا يصح السكوت عليها ، بل يجب على كل حكومة تحررت من أن يفرض على مصالحها هؤلاء المزورون فرضاً - أن ترفض هذا الضرب من الشهادات صيانة لمصالحها من عبث الجاهلين وحفظاً للأمة أن تنحدر إلى الهاوية إذا تولى أمورها المدلسون

يذهب الشاب العربي إلى إحدى ممالك أوربية ، فلا يكاد يهبط ماصتها حتى تراه سهولاً إلى مكتبة مشهورة أعطى عنوانها

على الوقت للضائع والجهد المرسوق، ولا خشية أن يكون عبث بالعمل فأفسده ثم هياه للطبع، ولكن فوجئت بما لم أكن أتصور أن الحياة تنطوي عليه من وقاحة وصفاقة، وعرفت أن ذلك الهافت من شبابنا على نيل للشهادات بأرخص الوسائل وأبدها عن الشرف، قد دخل في طور آخر أدنى وأحط، هو ما قصصت عليك من أمر هذا الشاب

وعلم موظفو المكتبة بالأمر فتمجّبوا وشدهوا وقال أحدهم: «هلا انتظر هذا المزور موت للشهود عليه وهم كثير». ثم بلغني أنه يريد أن يتقدم بهذا الكتاب إلى الجامعة المصرية لنيل دكتوراه ثانية؛ فهان الأمر على لأن أقل مناقشة من أساتذة الجامعة المختصين في موضوع الكتاب وتعليقاته تظلمهم على المزور فيه وعلى أن البضاعة المعروضة هي لتغير عارضها

أحسب والله أن هذا الشاب - ولعل أمثاله في المجتمع كثيرين - لا يرى أنه أتى أمراً إداً، وأنه فعل فله أكثر من سبقوه بنيل الدكتوراه من بعض الجامعات الأجنبية، فقيم يفرد دونهم باللوغ؟

وإذا كان أولئك الدكاتير نقدوا من صنع لهم أطاريحهم اللثام من القرنكات فلأن هؤلاء الصانعين غريبيون مادون مرتزقون؛ وأساتذة دمشق بحمد الله مثاليون يمتقون المادة، وحسب أحدهم من تمب السنين وصهر الليالي أن يتقد تراناً من الضياع وليس يهمه أن ينسب إلى سواء

وبعد فهذه أعماط مختلفة من أضرار التشجيع، عرضتها ليمالها وأمثالها المطلبون من الكتاب، حتى يحذرنا الناس وإن أخطم بشيء فهو قولي للمسؤولين من علماء وأدباء وأصحاب صحف ومجلات ورجال جامعات:

احرصوا على تثبيط الدجالين والمزورين حرصكم على تشجيع الأكفياة للصالحين، وما أنتظر لكم من ثواب الله وشكره وامتنان الناس على تثبيط الأولين أضعاف مالمكم على تشجيع الآخرين.

وإذا لقيتم هذا الضرب الويل من الناس وجاؤوكم بشتم وتزويرهم وغرورهم وجهلمهم، فثبّطوا ثم ثبّطوا ثم ثبّطوا
(دمشق) سعيد الأرفغاني

للعاصمة وأدبائها، وارتاد أسبائها الثقافية (سألوناتها)، متعرفاً لرجالها، ثم خاطبهم بمراده، وكلمهم أشار عليه بأن بلقاني... وإن للغيرة على العلم والأدب هي التي تحفز لهذا الأمر الجسام، وهو مستمد أن ينفق على مشروعه النفقات الباهظة... وليس يموزه إلا أستاذ ضليع محقق... عنده من الغيرة على لغة العرب وترانها ما يستحلي من أجله كل صاب وعلقم... وإنه بحمد الله على أن هداه إلى ووقفه إلى إجماع السعي بي... الخ

كل ذلك يقوله بنبرة متحمسة ولهجة عصبية تعطف عليه الصخر الأصم. ولم يكن من هذا الماجز إلا أن وقع في الشراك قائلاً في نفسه: إن من الفرض على المرء أن يشجع من نصب نفسه لخدمة العلم سهما كلفه التشجيع من الجهد والوقت

وعدته أن أهب له فراخي الوحيد كل أربعماء من الصباح حتى الظهر، ولبثت على ذلك حتى انتهى العام الدراسي: يقرأ على في قاعة المكتبة للظاهرة نسخة التي نسخها بمصر من كتاب (سر الصناعة لابن جني) ويدي النسخة الخطية التي تملكها دار الكتب للظاهرة من هذا الكتاب، وأنا أصحح وأقابل وأصبب وأعلق وأرجع إلى مصادر كثيرة في القاعة وهو يكتب ما أمله عليه. فإسأخنا العام حتى أتمنا من للعمل تسماً صالحاً لست أدري مقداره الآن بالضبط، ولكن الخطوة شرعت والعمل وضع، والعقبات اجتيزت، والحزون سهلت، وبقى من العمل ما لا خطر له. كل ذلك على دلاء من الناس، وعلى عين من موظفي المكتبة ومناولها وروادها لأن قانون دار الكتب يحظر إخراج المخطوط منها تحظيراً باتاً

ثم تماقت الأيام بلقاني فيهن هذا الشاب كلما هبط دمشق بمظاهرة حافلة من البشاشة والشوق والتفاني والاحترام... إلا أنه لا يذكر الكتاب بحرف طول هذه المدة، فظننت أنه ناء بالشروع وعجز عن نفقاته فأعمله لسوء حاله، ولم أجد من المروعة أن أنكأ فيه جرحاً داملاً... وكرت الشهور وإذا بي أجد في دار الكتب قبل شهرين رسالة صغيرة بالفرنسية نال بها هذا الشاطر الدكتوراه، بعد أن عرضها - فيما بلغني - بالمرية على الجامعة المصرية فلم تر فيها شيئاً فرهضتها. قلبت الورقة الأولى من الرسالة فإذا خلفها: (سيصدر المؤلف بالمرية: كتاب سر الصناعة لابن جني) فدار رأسي والله، لا حسرة